رُفاتُ حُلم

سامية غشير - الجزائر

هي الأرضُ الجريحة تتلذّذ بتعذيب أبنائها وترتوي من أنهار دمائِهم، قررت فجأة أن تكمل تفاصيل نهاياتهم التراجيديّة، لتخطّ على تضاريس ترابِها رسائل اللّقاء الأخير.

كان المهندس "أحمد"يعيشُ في مدينة (حلب) السّورية، مع أسرته الصّغيرة وأحبته في أمنٍ وحرّيةٍ، يتنعّم بحفيفِ أغاني الشّجر والمحراث وصوت القمر الذّي ينشد كلّ ليلة أناشيد الحُلم الفتيّ. كانت قناديلُ السّعادة تضيء حياتهم الحسناء، وكانت شموع السّلام موقَدَةً في محراب الحبّ الجميل الذّي زيّن حياته هو وزوجته الفاتنة "بلقيس"وثمرة حبّهما "سيف".

ذهب "أحمد"كعادته إلى العمل، وكانت "بلقيس"تحضّر له مفاجأة جميلة جدّا، أشعلت عبق البهجة ونثرت عطر المحبّة في بيتهما الزّمردي الذّي كان ينتشي كلّ يوم بأغاني الزّمن الجميل "اعطيني النّاي وغنّي فالغناء سرّ الوجود"لفيروز. اقتنت بعض (الشراشيف) الجديدة لتزف بيتها من جديد، نظرت إلى عقارب الزّمن فرأتها تقترب في دلعٍ جريء، انتابتها رعشةٌ قويّة ونادت مفزعة: أحمد... أحمد...وفجأة وصل أحمد قاطعا صراخَها الذّي هزّ أرجاء المكان قائلًا: "أنا هنا يا حبيبتي، أنا هنا يا مُنايا".

عادت السّعادة من جديد لتسكن عينَيْها الزرقاء التي تراءتا كبحرٍ صاخب تراقصت أمواجُه على نغمات الأصيل الشّجي.

قالت له: "حبيبي، كلّ عام وأنت بخير"!
ملأ الزّهو قلب "أحمد"النّدي وقال لها: "ظننتك نسيت تاريخ ميلادي..
قاطعته قائلةً: "مستحيل أن أنسى تاريخًا سكنت إليه يوما ما".
تقدّم نحوها "أحمد" وهو ينثر رسائل فرحِه: "كلّ عام وأنت فراشة عمري، ريحانة فؤادي، حلمي الشّذي ثمّ أنشدها قصيدة معطرة بدفءِ التوقدّ وعبق التودّد:

تسافر بنا الحياةُ إلى شواطئ حلم
فأرتاد محطّات العبور
وأقطفُ من شفتيك أغنيّة
تحملُني للأمنيات
وأبحرُ في عنفوان عينيك الشذّي
فأصيرُ شهريار الحكايات
وتمنحيني قبلةً مسائية
فأرتحلُ إلى تضاريس الغوايات

وبينما هما يستمتعان بتلك اللّحظات المتجليّة بنور العشق وتلك المشاعر الطّوفانيّة التي تدلّت تغتسل حدائق حُلمهما، فجأة تدفّق من التّلفاز صوت هارب انفجر يعبُر مواطن خلوتهما المنصهرة في ماء مفاتن اللّيالي، إنّها القيامة، إنّها الحرب. لقد اشتعلت الحرب الأهليّة وعمّت أرجاء المدينة التي وهبت جسدها لغوايات النيران والدّماء.
نظر الزّوج إلى زوجته وهو يهمس في أذنها: "لن تكون هذه نهاية قصّة حكايتنا".

كان صراخ "سيف الدّين"يملأ المكان، نظر إليه والده قائلا لزوجته: "ما ذنب هذا الولد البريء؟ ما ذنبه أن يعيش وسط كومة من الخراب والهلاك، يجب أن نلّم شتات أحلامنا ونركب قاربًا آخر قادرًا أن يمنحنا تذكرة الوصول إلى أحلامنا المطرزّة التي نسجناها على دفاتر حياتنا".

جمعت العائلة رفات ذكرياتها الجميلة والأليمة وغادرت تلك الأرض، نظروا في حيرة وشوق إلى أرضهم..

ثم مدّ "أحمد"يده إلى الأرض وأخذ يتلمّس ترابها لعلّها تمنحه حنانًا حريريًّا وتمنعه من الرّحيل، لكنّه شعر بالجفاء، نظر إليها ناثرًا على مقبرتها آخر تعاويذ عشق كتبها:

كنت عاشقًا أهرب إليك من أزمنة الفناء
يرتحل بين جغرافيتك الهَيفاء

كان يغتسلُ بقُبَل الوفاء

ويتعطّر بأزهارِ الكبرياء
كان يبحرُ في تجاويفك الضيّاء
كنت أتراقصُ كفراشة حسناء
على مقطوعاتِ الألق والوفاء
لكن فجأةً قذفتني إلى مدائن الجفاء
مواسم الزّهو غادرتني
ومرافئُ الحلم هجرتني
سأحملُ شتات روحي وبوحي
وحلم تدلّل على حروف السّناء

كانت هذه آخر رسالة "أحمد"الأخيرة: "الآن سأغادرك أيّتها الأرض العرجاء، سأغادر ضفافك الموجعة التي استعمرتني بحماقات الخيبات، لن أنكسر، لن ننكسر".

كان "سيف الدّين"صاحب السنتين من عمره ينظر إلى والديه في ذهولٍ شديدٍ ولم يفهم ما يقول والده لكن نظرات عينيه تدرك أنّه في موعد مع الرّحيل الأخير.

أرخى اللّيل سدولَه على أرجاء تلك المدينة، ومدّ كفَّه للغوايات التي كانت تُنبئُ برسائل النّهايات، ركب أحمد وعائلتُه زورقَ الحياة الجديدة بعد أن منح للبحر معاهدَ بالسّفر، ضحك البحر وارتفعت ضحكاته تملأُ المكان، وفجأةً تغيّرت ملامحه وأضحت شاحبةً حزينة، حيث احتلته التجاعيد السّمراء فكان ذلك يوحي بهشاشات الرّحيل.

تنهدّ "أحمد"بقوّة ونظر إلى السّماء وكأنّه يريد أن يغازل نجومها لآخر مرّة، كان يريد أن يسمو في الحياة إلى منعرجات الأمل والحُلم، كان يريد أن يعبر مسافات الحروف المتقدّة ليخطّ على تراتيل فؤاده قصيدة عشقه للحياة.

نظرت إليه زوجته وقالت: "لا تجزع يا "أحمد"سنعود يوما إلى هذه التضاريس الحزينة التي لطالما علمتنا دروسَ الأمل والوصال والعطاء، سنبني آخر جسور للحياة في أرضنا الغرّاء، لا تجزع ستتحسّن الأمور وتعود البهجة تغزو ضفاف سوريا الجريحة".

نام "أحمد"وهو يحتضن زوجته "بلقيس"وابنهما "سيف الدّين"وهو يحكي لهما آخر حكايات أحلامهم الزّهريّة، وهمسات الوفاء والشّذى والجوى ينثرها مرّة على مرّة، وكانت الأمواج تتراقص على نايات الوِصال، وقبل أن ينامَ تكلّم

آخر جملة "لن أنساك أيّتها الشّواطئ الحسناء، فقد منحتِني نفحات حلمي الجميل".

تسارعت السّاعات وتناحرت فيما بينها في صمتٍ طائشٍ وأعلنت السّاعة دقاتها الأخيرة، لقد وصل الزّورق إلى شواطئ "سردينيا"، لكن البحر قرّر أن يكمل آخر أطوار الحكاية، همس في جرأة شديدة: "أحببت تلك الأرواح الجميلة، كنت أغار من شلّالات الوصال المتدفقة في كبرياء والتي كانت تنفجر على جغرافيّة تلك العيون الزمرديّة".

تصاعدت الأمواج بقوّة على شواطئ ذلك البحر غاضبة جدّا معلنةً حدادها بعد أن التحفت بالأسود حزنا على فراق تلك الأرواح التي التصقت أجسادها بالأرض مردّدة آخر رسائلها:

يأخذني البحرُالأزرق
فأنام بينَ أمواجه
وزورقُ الألم يعبث بنا
في تيهِ السؤال الأخير
احملينا يا أرْض
كالوليد في شَرْنَقة الحياة
وامنحيني وَمْضًا من حلم كان
يعزفُ أوتار مواسم المطر
فالهموم الآن انجلت
والدّموع انسكبت

والقلب ما عادَ يكتحل بالسّواد
فَرَنَّةُ الموت تفجّرت على الوريد
سنغادر اليوم كطائر العنقاء
وسنتجدّد يومًا لنعيش الضّياء
بين مراتيجك الهيفاء